مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 18 عدد: 01 أوت 2022
العنوان: التقلبات المناخية وانعكاساتها على النشاط... ص.ص 434- 454.

التقلبات المناخية وانعكاساتها على النشاط الاقتصادي في المغرب الأوسط

سجية بوساق
جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2، مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي.
bsadjya@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/12/30؛ تاريخ القبول:2021/06/29

Climate variability and its impact on business activity in the middle Magherb

Abstract:

This Search is part of ecnomic history in middle maghreb . as is well kown various studies have taken care of factors that encourage the developmet of ecomi activity. The latter mentioned various natural qulifcations and ingredients.
However ; there were factors that hindered economic activity during . the middle age . especially those relted to the natural side. It affected agricugtural activites in the first place.
Agricultural activites depend on trades and industries as well as the availability of trade resources .
Talking about climat variability in the middle Maghreb its impact on economic activites It was necessary to distinguish them by to levels : The first level relates to drought and the resulting effects on agriculting production.
the second level relates to of the impact of rainfall and storms on agricultural production and that artisanal and commercial activity.

Keywords:middleMaghreb ;climate variability ; business ; Agricultural activity; Prices**.**

الملخص:

يروم هذا البحث إلى تسليط الضوء على أحد المواضيع التي تندرج ضمن فعاليات التاريخ الاقتصادي للمغرب الأوسط في العصر الوسيط. وكما هو معلوم فإن مباحث التاريخ الاقتصادي لا تزال تراود

الباحثين، وتستقطب اهتمامهم. نظير ما تطرحه من قضايا مهمة. انبنت عليها الكثير من الوقائع، وتفسر على ضوئها العديد من الأحداث.

ومن خلال قراءة في نصوص مصدرية كان لها الأثر في إثراء بعض الجوانب المهمة في تاريخ المغرب الأوسط. خاصة إذا تعلق الأمر بأثر التقلب المناخي على النشاط الاقتصادي. أين ينحو الباحث لبيان الأثر السلبي والوضع الاستثنائي لعامل المناخ على الاقتصاد. وانعكاسه على مستوى البنية المادية والبشرية.

إن الحديث عن أثر التقلبات المناخية في المغرب الأوسط، اقتضى التمييز بينها، وفق مستويين، يتعلق المستوى الأول بالقحط والجفاف، أما المستوى الثاني فبالعواصف والتساقط، وما نجم عنهما من آثار على صعيد الإنتاج الفلاحي الذي يعد لبنة النشاط التجاري.

وقد حاولت رصد أهم التذبذبات المناخية، وخلصت في ختام الدراسة إلى أنه كان لها من التأثيرات ما يلي:

- القحط أحدث تقهقر أو تراجعا في حركة الإنتاج، مع غلاء الأسعار وأزمات الجوع.
- ندرة الإنتاج الفلاحي أسفرت عن كساد الأسواق، وقلة الموارد وتراجع العديد من الحرف. وظروف التساقط والعواصف عرقلت خطوط المسالك التجارية وعطلت سير القوافل.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط ؛ التقلبات المناخية؛ النشاط الفلاحي؛ الأسعار؛ التجارة.

مقدمة:

إن الدارس لتاريخ المغرب الإسلامي عموما وقضاياه الاقتصادية، لا بد له من الالتفات لكل المصنفات، وعليه الاستفادة من الإنتاج التاريخي الذي أرخ لفترات العصر الوسيط، وإن كان الاهتمام ظل منصبا على التأريخ للبلاط ورجاله. فإن ذلك لا يمنع من العودة لتلك المصنفات، وافتكاك ما ذكر عرضا في ثناياها من نصوص وإشارات، هذه الأخيرة

بإمكانها تغطية بعض الثغرات ذات الصلة بجوانب حياتية لإنسان بلاد المغرب.

وحظي الجانب الاقتصادي باهتمامات واسعة، وإن بدت غير صريحة عند بعض المؤرخين ، فهي ظاهرة نلمسها في كتابات البعض، الذين لم يغيبوا ذكر الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية، خلال ذكرهم للحوادث السياسية والعسكرية. وهنا يمكن التمثيل بابن عذارى المراكشي، وابن أبي زرع الفاسي، وغيرهما، إذ أن المؤرخ يورد ذلك عرضا، أو أن الظاهرة جذبت انتباهه، واستقطبت اهتمامه كونها ذات أثر كبير، أو هي شاذة ونادرة الحدوث.

ونجد النصوص الموظفة تغطي بالوصف فترة تاريخية تمتد على مدار أكثر من خمس قرون زمنيا، عمرتها كيانات سياسية متعددة الانتماءات والولاءات، وتجاوزت ضمنيا لتعرض بعض حوادث كل بلاد الغرب الإسلامي، وما مسها من أحداث وما كان بها من أوضاع.

فإلى أي مدى ساهمت التقلبات المناخية في زعزعة البنية الاقتصادية لبلاد المغرب الأوسط؟

الوصف المناخي للمغرب الأوسط من خلال المصادر:

إذا كان المغرب الأوسط يتسم باتساع المساحة، وتنوع التضاريس، فإن تحديد مناخه ليس بالأمر الهين. خاصة وأنه لم ترد في ذلك نصوص صريحة، أو مصطلحات دالة. بل أن كل ما ذكر استند إلى المدن وأوصافها، غير أن ذلك لا يعدم من وجود إشارات يسيرة، تتضمن جو المدينة العام ضمن سياق الوصف، فعلى سبيل التمثيل، تعتبر تلمسان: "أشد بلاد عدوة المغرب الأوسط بردا وتجلدا" (ابن مرزوق التلمساني، 1981: 222). ومدينة بونة تقع على جبل زغوغ، "وهو كثير الثلج والبرد"(البكري، (د. ت): 66). وقسنطينة كانت :" شديدة البرد والثلج كثيرة الرياح لعلوها وارتفاعها" (مؤلف مجهول(د.ت): 178-167-166). وفحص عجيسة الواقع قرب مدينة الغدير؛ "مدير كثير الزرع والضرع إلا أنه شديد البرد والثلج". (مؤلف مجهول: (د.ت):167). وعرفت بلاد الزاب بأنها ذات هواء

حار، (مؤلف مجهول (د.ت): 171). وجملة هذه الأوصاف تعكس تنوع الظاهرة المناخية والتضاريسية في المغرب الأوسط.

المعطى المناخي كان طاغيا على وصف بعض مدن المغرب الأوسط، وساهم الخيال الأدبي والشعري في تجسديه، نستشف ذلك من خلال قطعة أدبية تصور الوضع في مدينة تاهرت. في قول الشاعر بكر بن حماد التاهرتي (بكر بن حماد، 1996: 44-52)، من بحر السريع:

"مَا أَخْشَنَ الْبَرْدَ وَرَيْعَانَهُ وَأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِتَاهَرْتَ

تَبْدُو مِنَ اَلْغَيْمِ إِذَا مَا بَدَتْ كَأَنَّهَا تَنْشَرَ مِنْ تَخْتِ

نَحْنُ فِي بَحْرٍ بِلَا لُجَّةٍ تَجْرِي بِناَ الرِّيحُ عَلَى السَّمْتِ

نَفْرَحُ بالشَّمْسِ إِذَا مَا بَدَتْ كَفَرْحَةِ الذِّمّي بالسَّبْتِ"

وبالعودة إلى نصوص الحسن الوزان يعرض فيها لجوانب مناخية، يستشف منها ميقات بدء فصول السنة وانتهائها، وما يحدث من اضطرابات مناخية تحدث خلالها وتؤدي إلى مجاعات. (الحسن الوزان، 1983،ج1: 80-81).

كما أن هبوب الرياح الجنوبية القادمة من الصحراء ذات الحرارة الشديدة، والجفاف في غير فصل الصيف، تفسد الغلات وتمنع الفواكه من النضج، واستمرار هبوبها من شأنه إتلاف المحاصيل الزراعية (الحسن الوزان، 1983،ج1: 81).

وزيادة على ذلك؛ فإن إشادة النصوص الجغرافية بالموارد المائية المتوفرة في كثير من المدن على غرار مدينة بجاية، لا ينفي تأثرها بتقلبات المناخ. فابن الزيات يروي في مصنفه حدوث مجاعة بسبب الجفاف فيقول :"... كنا ببجاية فأصابتنا مجاعة شديدة.. " (ابن الزيات ،1997: 429). ويتأكد ذلك بشهادة الغبريني : "كنت ببجاية فأصاب الناس جفوف عظيم، وقلت المياه وجف أمسيون.. ووصل الزق إلى أربعة دراهم". (الغبريني، (د.ت): 267).

التقلبات المناخية في المغرب الأوسط :

تتماهى التقلبات المناخية في شكلين رئيسيين؛ بناءً على عامل التساقط؛ القحط والجفاف، والفيضانات والثلوج والبرد، وما يرافقهم من عواصف. ولأن موضوع هذه الدراسة يستند إلى نصوص مصدرية تاريخية أو جغرافية. فسنتعرض لأهم تلك التقلبات.

القحط والجفاف:

نوَّه أحد الباحثين بأن المعلومات الواردة في المصادر حول سنوات الجفاف، وما ينجم عنها من مجاعات ارتبطت أكثر بفترات التطرف المناخي، (ياسر الهلالي محمد ياسر، 2002: 173)، أي أن المصادر لم تُشد إلا ببعض الوقائع التي كانت شديدة الجفاف (الحسين بولقطيب، (د.ت): 48). حيث تعرض المغرب الأوسط خصوصا لحالات من القحط والتي نذكرها كالتالي:

جدول رقم 1: ظواهر القحط والجفاف :

السنة	الظاهرة الملاحظة	المصدر
253هـ/ 868م	قحط في المغرب والأندلس	الأنيس المطرب، ص96
260هـ/ 874م	قحط في المغرب والأندلس	نفسه، ص96
381هـ/991م	قحط ببلاد المغرب والأندلس. رافقته مجاعة لمدة ثلاث سنوات.	ص144
407هـ/1017م	قحط وجفاف ووباء	ص118
411ه/ 1021م	القحط والفناء.	ص 118

سجية بوساق
bsadjya@gmail.com

617هـ/ 1220م	القحط والغلاء والجراد	ص273
687هـ/1288م	القحط والريح	ص408
723هـ/	القحط بالمغرب عامة. القحط والمجاعة والغلاء	ص401 ص431.

من خلال الجدول يتضح تعرض ابن أبي زرع لذكر مظاهر الجفاف والقحط في مصنفه، والواقع أنه رصد القحوط الخاصة التي تصيب المغرب الأقصى، والعامة التي تعرض لها المغرب الإسلامي والأندلس. وهذا لا ينفي الاستئناس بنصوص ذات علاقة بالظاهرة، إذ خص العبدري في رحلته تلمسان بقوله " ثم وصلنا إلى تلمسان فوجدناها بلدا أحلت به زمانة الزمان.. فلم يبق بها علالة ولم تبصر في أِرجائها للظمئان بلالة. (العبدري، ، ص27).

حالات القحط هذه لم تكن بوتيرة واحدة. فخلفت آثارا متفاوتة الضرر، فهناك ما نجم عنها مجاعات. (الذهبي، 1984: ج4/ 114-118)، وهناك حالات لم تخلف مجاعات، بحسب ما ذكر في النصوص. وهو ما يبرز العلاقة الراسخة بين التساقط وتحقيق الأمن الغذائي.(البياض، 2008، ص 20).

عرف القرن السابع الهجري تتابع حالات الجفاف فما بين سنوات 610هـ/1213م، إلى غاية سنة 688هـ/1289م، فكان هناك سنوات عجاف أدت إلى وقوع عدد من المجاعات الناتجة عن مواسم متلاحقة من الجفاف (محمد المغراوي، 2006: 176-177). وهي تدل في عرف إنسان المغرب على جملة صعوبات معيشية وصحية (البياض، 2008: ص 20).

وتُعد السنة الواحدة من الجفاف نادرا ما تنجم عنها المجاعة، نظرا لتَعوُد الناس على التصدي للجفاف. وفي حالة استمراره لثلاث سنوات فهي الكارثة. (خالد بلعربي، 2008: 116).لذلك كان الجفاف من الظواهر المألوفة، وفي الوقت ذاته تشكل قلقا ينتاب الناس، مفاده أن خللا ما طرأ على مجرى الحياة العادي (البزاز، 1992: 347). حاول سكان المغرب الأوسط التأقلم مع الوضع، وبرعوا في تخزين الحبوب في مطامير تحفظها لسنوات طوال، كما عبر الإدريسي عن الظاهرة التي عرفتها مدن المغرب الأوسط على غرار قسنطينة. (الإدريسي، 2002: ج265/1). كما أن من مظاهر التأقلم مع شح السماء استخدام الصهاريج لتخزين المياه، فأهل مدينة طبنة كان لهم صهريج لحفظ ماء نهر بيطام الذي يحمل موسميا. (عزالدين موسى، 1983: 64).

وبالعودة إلى تأثير ظاهرة القحط على السكان ووضعهم المعيشي والصحي، واستنادا إلى ما ورد في مصنف ابن أبي زرع. نجد جملة ظواهر مصاحبة للقحط ذكر صاحب الأنيس المطرب منها:

الظاهرة	المجاعة	الوباء	الغلاء	الجراد
التكرار	6	7	7	3

ومن خلال الجدول يمكن القول أن الإحصاء الموضوع غير مكتمل، فهناك ظواهر اشترك فيها ابن زرع مع بعض المؤرخين، وهناك ظواهر انفرد بذكرها.

غالبا ما تخلف حالات القحط والجفاف آثار منها المجاعات وقلة الموارد الغذائية، وترافقها موجات الأوبئة، التي تنعكس سلبا على

الوضع الديمغرافي. فضمن حوادث سنة 411هـ ، ذكر ابن أبي زرع " اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تيهرت إلى سجلماسة، وكثر الفناء في الناس" (ابن زرع، 1972 : 112). كما ترافق مظاهر القحط والجفاف اكتساح الجراد ومهاجمته للمزروعات، وهو ما تكرر حدوثه في القرن السابع الهجري (ابن زرع، 1972 :384-405). وبذلك كان المشهد الفلاحي والشبكة المائية رهينا المطر(سعيد بن حمادة ،2013: 99).

التساقط والرياح:

تراوحت تقلبات المناخ بين شح السماء وانفلاتها، فقد عرف المغرب الأوسط، كجزء من المغرب الإسلامي ظاهرة الفيضانات وانهمار السماء، والتي قد يرافقها انخفاض في درجة الحرارة، فتأتي على شكل أمطا، أو ثلوج، أو بَرَد، وقد يرافقها رياح وعواصف.

وهي الأخرى تُسبب خسائر مادية -إذا زادت عن حدها الطبيعي-. على مستوى قطاع الإنتاج من إتلاف للزرع والغرس. وتخلف نزيفا أيضا على مستوى الإنتاج الحيواني. والجدول التالي يلخص أهم ظواهر التساقط وما رافقها:

جدول رقم2: التساقط والرياح :

السنة	الظاهرة الملاحظة	المصدر
339هـ/ 951م	البرد	روض القرطاس، ص100
342هـ/ 954م	البرد والسيول والرياح	ص100.
355ه/ 966مـ	الرياح الشديدة	ص100

سجية بوساق
bsadjya@gmail.com

378هـ/ 988م	فيض الأودية	ص102
379هـ/ 989م	الرياح الشرقية	ص102
381هـ/ 991م	الرياح بمدينة تلمسان	ص116
385ه/ 995م	الرياح	ص116
406هـ/ 1017م	رياح كثيرة	ص118
723هـ/	أمطار وثلوج	ص412

اتسمت نصوص ابن أبي زرع بتعدادها لظاهرتي التساقط والرياح لبلاد المغرب عامة، وانطلق في حديثه عن الفيضانات التي تعرضت لها بلاد المغرب من سنة 342هـ، بقوله :" نزل برد عظيم لم يُعهد مثله، قتل المواشي وأهلك الثمار، ..وجاءت السيول العظيمة بجميع المغرب، وكان بها الرعود القاصفة والبروق الشديدة، دام ذلك أياما كثيرة، وفيها كانت الريح الشديدة التي هدمت المباني.. ". (ابن أبي زرع، 1972: ص100).
والواقع أن نصوصا أخر رصدت تواتر حالات التساقط وبكثافة قبل ذلك، وهي تعضدها وتبين أثرها على التنقل والإنتاج:

جدول رقم3: التساقط والأمطار من خلال بعض النصوص:

المجال الزماني	وصف الظاهرة	المصدر

315ه/927م	" وتوجه إلى مدغرة، ثم إلى سوق إبراهيم، فأقام في تلك الجهة أكثر من شهر، لكلب الشتاء وكثرة الوحل.."· وكتب القائم إلى المهدي مخبرا إياه :"أنه أقام في مناخ واحد شهرا كاملا، عليه المطر كل يوم بالغدو والآصال"·	ابن عذارى: البيان،ج1 ،ص191- 192.
315ه/927م	" وتوالت الغيوث والأنواء والأمطار وكثر الوحل، فسمى أناس ذلك المناخ مناخ الوحل"·	تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص218- 219.
335ه/947م	" وانتهى إلى كدى صنهاجة وأصاب الناس في ذلك اليوم ثلج واشتد عليهم بالليل، وتراكم على الأخبية والفازات حتى تكسرت أعمدتها.. وانفتحت السماء بالسفح الهاطل".	الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص404

تتسبب التساقطات الزائدة عن الحاجة، في حرمان الكثير من الفلاحين من عملية الحرث والبذر. وسببت انجراف التربة والمزروعات (البياض، (د.ت): ص 116)، فقد وصف يحي بن خلدون مجاعة تلمسان، " أنها نتيجة إعصار عظيم أهلك زرع تلمسان". (ابن مرزوق، 1981 : ص 222).

كما ينجر عن تهاطل الأمطار الغزيرة، فيضانات تتسبب في تهديم الجسور والقناطر، وقد تعرقل خطوط الموصلات وتقطع المسالك (جودت، 1992: 455).
وأرَّقت آفة البَرَد الفلاحين، هذا الأخير يُعد أحد أخطر الظواهر تهاطلا، نظرا لحجم حباته الكبير، وأثرها على المحاصيل الزراعية، كالقمح والشعير. ويتسبب أحيانا في قتل المواشي؛ فقد "نزل بَرَد عظيم لم يعهد مثله، قتل المواشي وأهلك الثمار،...وجاءت السيول العظيمة بجميع المغرب، وكان بها الرعود القاصفة والبروق الشديدة، دام ذلك أياما كثيرة، وفيها كانت الريح الشديدة التي هدمت المباني ". (ابن زرع، 1972: 100).

ليس الجفاف كمنعطف مناخي، وحده عدو الفلاحة في المغرب الأوسط، فنزول الأمطار في غير موسم الإنبات- الإزهار والحصاد- يخلف أضرارا على الزراعة وفساد المحصول (حليمي عبد القادر، 1968: 73). ونَلْمح في نصوص النوازل الفقهية؛ قضايا رُفِعت للمفتيين للبث فيها من قبيل:" هل يباح في مثل هذه المجاعة الفادحة الواقعة عندنا في المغرب، في هذه السنة سلف الزرع المبلول والعفن ليأخذ صحيحا لما في ذلك من إحياء النفوس". (الونشريسي، 1981، ج6: 883).
وكان للرياح والعواصف المرافقة للرعود والأمطار، تأثير حيث أن: " الرياح الهائلة التي هدمت تلمسان وأحوازها واقتلعت الأشجار إلى السماء، ونظر الناس إلى البهائم وهي تمر بين السماء والأرض". (ابن زرع، 1972: ص116).
ولظاهرة فيضان الأودية وقع كبير في المغرب. فضمن حوادث سنة 378هـ / 988م: "بلغ الفيض الذي فاضت فيه أودية الغرب إلى غاية لم تعهد". (ابن زرع، 1972: 102)، ولأن أغلب مدن المغرب الأوسط قد أقيمت حول الأنهار، فقد نبَّه البكري إلى خطورة فيضاناتها، وأتى على ذكر فيضان نهر سيرات، الذي نجم عنه هلاك المزروعات على طول الفحص الممتد أربعين ميلا، وأضحى غامرا بعد أن كان عامرا، بسبب هجرة السكان خوفا من فيضانه وما يتسبب

في هلاك زرعهم وضرعهم وحتى أرواحهم. (البكري، 1992: ج2/ 737).

التقلبات المناخية والوضع الاقتصادي:

إنَّ المجال الطبيعي يخضع لعاملي المناخ والتضاريس، ويعتبر مصدر الثروة والوفرة، أو الندرة والحاجة، وقاما بدور هام في تحديد أنماط العيش وأنواع القوت كما وكيفا. وظلت هذه الوضعية رهينة بما تسمح به الأحوال المناخية.

على مستوى الفلاحة والحرف:

تعوزنا المعلومات الكافية للوقوف على مدى تأثير تلك المنعطفات المناخية، على الفلاحة والحرف خلال فترة الدراسة، إلا ما ورد في ثنايا بعض النصوص. فقد انعكس القحط والجفاف على النشاط الفلاحي بشقيه الزراعي والحيواني. وأفرز مشاكل زعزت الأسس المادية، (عبد العزيز فيلالي، 2007: ص267). من حيث قلة المياه وندرتها، كما انعكست على مستوى تقلص المساحات المزروعة، وهو ما سيكون له أثر على الإنتاج. فضمن حوادث سنة 690ه/ 1291م، لم ينزل المطر حتى شهر أفريل، و حصد الناس ما حرثوه من الزرع عن أربعين يوما. (ابن أبي يزرع، 1972: 408)، وأقدم الفلاحون على ذبح دوابهم أيام المجاعات، مما عرض الثروة الحيوانية للإبادة. (بولقطيب الحسين، (د.ت): 67).

السيول والفيضانات هي الأخرى، تتسبب في منع الحرث والبذر. (خالد بلعربي، 2008: 116). وكانت النوازل الواردة إلى الفقهاء تحمل تضرر ومعاناة الفلاحين من هذه الظاهرة. فقد سُئل القاضي أبو عبد الله بن علاف؛ عن رجل اكترى من رجل موضعا، فأتى السيل ودخل عليه، وحمل منه نحو الثلث وعطَّل من غلته كذلك" (الونشريسي ،1981:ج5 :236). وهي ظاهرة أثرت على نفسية ممتهني النشاط الفلاحي ووضعهم الاقتصادي.

لقد جمع نص جغرافي من القرن 6هـ/12م، بين ثنائية الخصب والوفرة، وما ينتج عنها من الكثرة والجودة، فقال عن بلاد المغرب: "وهي كثيرة الخصب والزرع... كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي..". (مؤلف مجهول، (د.ت): 179). هذا الوضع المناخي

الطبيعي، غير أن الوضع الاستثنائي وما يرافقه من تقلبات مارس ضغطه على ممتهني الرعي.

ولطالما كان غياب الماء عنصرا مهما، في إذكاء النزاعات بين القبائل الرعوية خاصة، وصدامها مرده إلى النزاع حول الكلأ والمرعى. وكلما كان هناك اضطراب مناخي، وشحَّت السماء، إلا وتعثرت مصالحها. كما تضرر الرعاة من جهتهم، فقد أدى القحط والجدب إلى تقلص في المساحات الرعوية. (ياسر الهلالي، 2002:183)، وكانت قبائل المغرب الأوسط كمزاتة وسدراته وغيرهم تضطر للانتجاع عن أوطانها التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها، لما حولها من الكلأ وغيرها. (ابن الصغير المالكي، (د.ت): 41). ويمكن رصد اتجاه حركة الانتجاع وزمانها؛ فهي تتجه صيفا نحو الشمال لتأخذ شكلا عكسيا في فصل الخريف صوب الجنوب. ويكون التحرك بناء على وضعية تضرر المراعي من التقلبات المناخية.

وقد عدَّ الإدريسي حوالي اثنتي عشر قرية، مستقرة في المجال بين تاهرت وتلمسان، من زناتة مؤكدا بأنهم "أصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان لآخر" (الادريسي، 2002: ج1، 256). والمنتجع لا يخرج أبدا من ممتلكاته إلا في حالة القحط الشديد. (بلمدني نوال، 2014: 121) .

الضرر الذي لحق بالنشاط الفلاحي والرعوي، كان له أثر على النشاط الحرفي، على اعتبار أن الفلاحة تدعم الحرف بالمنتجات النباتية والحيوانية. (عبد الهادي البياض، 2008:182). حيث تعتبر الصوف عمدة الصناعة النسيجية، إضافة إلى الجلود. أين يهتم الحرفيون والصناع في حالة وفرتها بـ: " صناعة الصوف في نسجه، والجلد في خرزه ودبغه. وقد كانت تلمسان تشتهر بأعمال الحياكة والمنسوجات الصوفية. (ابن مرزوق، 2008: 188).

وبذلك تسببت الظروف المناخية الاستثنائية في تراجع الكثير من الصناعات والحرف. والتي اشتهرت بها بلاد المغرب الأوسط، كصناعة النسيج والجلود، وحرفة طحن الحبوب، وتجفيف التين

والعنب، وغيرها من الصناعات الحرفية التي تعتمد على الموارد الحيوانية والنباتية. (فيلالي عبد العزيز، 2007،ج1/223).
انعكس القحط والجفاف على النشاط الفلاحي؛ بشقيه الزراعي والحيواني. وأفرز مشاكل زعزت الأسس المادية. (فيلالي، 2007، ج1/ ص267)،(البياض،(د.ت): 69). من حيث قلة المياه وندرتها، كما انعكست على مستوى تقلص المساحات المزروعة، وهو ما سيكون له أثر على الإنتاج. كما فقد العمل الفلاحي طاقة إنتاجية أخرى، كدواب الحرث جراء القحط. (ياسر الهلالي، 2002: 184).
ولما كانت التجارة "فرع لمادتي الزرع والنتاج"، (الماوردي ، 2013: 340). فإن غياب الزرع والإنتاج الحيواني، يؤثر على حركية النشاط التجاري.

على مستوى التجارة :

ساهمت التقلبات المناخية في ندرة الإنتاج، وبذلك كساد الأسواق، وعرقلة حركة القوافل، وتسببت في حدوث أزمة المسالك وتزعزت المعاملات التجارية. وكانت آثارها وخيمة على أسعار الغذاء خاصة (بصديق عبد الكريم، 2018: 476). نظرا للعلاقة الطردية القائمة بين التقلبات المناخية والأسعار.
من جهة أخرى تقلصت بعض مدن المغرب الأوسط وتراجعت أهميتها التجارية، وهو ما يتجلى في وضع مدينة تاهرت إذ " تغيَّرت تاهرت على ما كانت عليه .. وأهلها فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط". و" كذلك كتامة في حالها" (ابن حوقل، (د.ت): 93).
كما تعطلت القوافل التجارية عن وجهتها، إذ يذكر ابن بطوطة أن المطر أصاب قافلة متوجهة إلى قسنطينة فعرقل وصولها (ابن بطوطة، 1987: 35).
و لاشك أن الظروف المناخية المتقلبة مارست نوعا من التأثير والضغط على إنسان المغرب. وأثرت على تصرفاته فتحول إلى ممارسة سلوكات اتسمت بالسلبية، حيث اعترضت القوافل التجارية وأمست بأمن المسافر، وأصبح :" تأمين السبل وتمهيد الطرق من أفضل الأعمال.." (ابن مرزوق، 1981: 429).

فكانت العدوانية والتعدي آفة اعترضت كبرى الطرق، خاصة في المحاور بين تلمسان وبعض مدن المغرب الأقصى. حيث وصفها العبدري بقوله أن: "القافلة تخرج وهي كبيرة تزيد عل الألف، وقال لنا قائل إن لهم في محاولة من ثلاثة أشهر حتى لهم بخفارة على أداء خفارة.." (العبدري، 2007: 212). واشتدت ظاهرة الغصب، وإفساد السابلة، وهي ظروف جعلت الخليفة الموحدي عبد المؤمن، يرسل إلى ولاته عام 551هـ/1156م، يأمرهم "بالكشف عن التلصص والحرابة" (محمد المنوني، 1977: 191).

وحسبنا أن تاجرا اعترض اللصوص سبيله في مدينة بجاية، ونهبوا بعض متاعه، فرفع أمره للخليفة عبد المؤمن الذي قال له :" كم صح لك في الشَّدة- المتاع- التي فقدت أختها، فقلت كذا وكذا، فأمر من وزن لي المبلغ ثم قال لي: قم أنت أخذت حقك وبقي حق الله .." (النويري، د.ت :ج24/ 176).

وتؤثر الظروف المناخية الاستثنائية على أشكال التعامل التجاري، فشدة الحر وقلة الماء، واضطراب أمن الطرق، مدعاة لارتفاع أسعار الموارد المجلوبة. خاصة الصحراوية " التي بها مفاوز وبراري منقطعة، قليلة الماء، متعذرة المراعي لا تُسلك إلا في الشتاء.." (ابن حوقل، (د.ت): 100). وفي فترة لاحقة تؤكد نصوص الوزان الوضعية الصعبة للمسالك الصحراوية، وما يشوبها من مخاطر الحرارة والجفاف ". "وهذه الصحراء جافة وخطيرة على التجار الذين يجتازونها، كحال الذين يذهبون من قسنطينة إلى بلاد السودان". (الوزان/ 1983: ج153/2).

كما تعترض الرياح الموسمية والسيروكو الجافة السير الحسن. وتعرقل القافلة مما يعطلها عن الوصول في الآجال المحددة، وهو ما يكبد التجار خسائر كبيرة.(بصديق عبد الكريم، 2018 : 479).

وعلى صعيد آخر تأثرت الكثير من الفئات الاجتماعية، ذات الدخل المحدود من انعكاسات القحط والجفاف. خاصة في ظل تتابع حالات الغلاء. (ابن زرع، 1972 ،ص 267). وبات الفرار من المسغبة حفظا للنفس ضرورة، دفعت الكثير إلى الفرار، مثلما حدث سنة 537هـ /1141م إلى سنة 543هـ /1148م، (ابن زرع، 1972:

349)، وسنة 630هـ /1232م، أين خلت بلاد المغرب بسبب الجوع والوباء.
وبالنسبة للأسعار، فالنصوص على قلتها وبطريقة غير مباشرة، حاولت أن ترصد بعض الأسعار، وأعطت لها مبررا تعليليا في الظروف الاستثنائية، فابن هيدور علل الغلاء (ابن زرع، 1972: 76-97)، وحصره في المؤثرات الطبيعة دون أن يفصلها عن العوامل البشرية، فقال:" إن الغلاء لحدوثه سببان: إما احتباس المطر، وإما لظهور الفتن والحروب" (البياض، 2008: 100). وهو ما سنحاول ذكره من خلال الجدول.

جدول رقم :4 يوضح بعض الأسعار للموارد الغذائية الأساسية في سنوات القحط.

الظرف المناخي	السلعة	السعر	المصدر
الوباء والغلاء سنة 317ه/929م.	القمح	قفيز قمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب.	ابن عذارى: البيان المغرب، ج1،ص194.
512ه/1119م. تلمسان	الدقيق	ربع الدقيق بعشرين درهما.	البيان،1، ص307.
617ه/1221م.	الشعير	ثمن أواق من الشعير بدرهم	ابن أبي زرع، ص273.
624ه/1227م.	القمح	قفيز القمح بخمسة عشر دينار.	ابن أبي زرع، ص274.

630ه/1233م.	القمح	وسق القمح بثلاثين دينار	ابن أبي زرع، ص274.
634ه/1237م	الدقيق	ربع الدقيق بـ 37درهم.	ابن عذارى: البيان، ص339.

إن المصادر والنصوص المطلع عليها لا تكاد تشفي غليل البحث في موضوع الأسعار، ذلك أنها تذكر بعض الأسعار في الظروف الاستثنائية، وهذا لا يمكن أن تقاس وتقارن عليه في الظروف الطبيعية. إضافة إلى العبارات الأدبية المجملة من قبيل قولهم: رخص وخصب موصوف. وفي ظل غياب نصوص إحصائية خاصة بالمغرب الأوسط، فإن القرب الجغرافي بين الأقطار أو خضوع المغرب الأوسط لنفوذ بلاد إفريقية أو المغرب الأقصى يجعل الأسعار متقاربة. (جودت عبد الكريم، 1992: 162).

إن ارتفاع أسعار الحبوب، قد يكون مؤشرا لقياس مدى حدة الجفاف المؤدي للمجاعة، (البياض، 2008: 101). على اعتبار أن القمح يشكل المادة الاستهلاكية الأولى في بلاد المغرب الأوسط.

كما أسهمت مضاعفات القحط في تأثر فئات عريضة جراء تتابع الغلاء وضعف القدرة الشرائية، حيث أنه بعد قحط سنة 617ه/1220م مباشرة، "اشتد الحال في تنامي غلاء الأسعار بالبلاد المغربية والأندلسية.." (ابن عذارى، 1985: 267). ومعظم الأسباب الجلية لتقلبات الأسعار الإقليمية هو نقص المؤن بسبب المجاعة والقحط". (أوليفياريمي كونستيل، 2002: 209).

الخاتمة:

على حد تعبير الباحث المغربي الحسين بولقطيب، فإن التمعن في علاقة المناخ بالتاريخ يدفع إلى القول بوجود قاسم مشترك بينهما؛ فكلاهما يخضع لتقلبات مستمرة. وقصد الخروج بتصور عام

للموضوع فإن التقلبات المناخية؛ كانت وضعا استثنائيا، أثر على القطاعات الحيوية، وزعزع الاستقرار المادي والاجتماعي، لإنسان المغرب الأوسط.

كما أن النصوص المصدرية، ضمت مادة وفيرة، وتضل وثيقة كفيلة بأن تميط اللثام عن عامل مهم من شأنه تفسير بعض الجوانب المغيبة في تاريخ المغرب الأوسط الاقتصادي، وما ارتبط بها أو انبنى عليها أو تأثر بها. النصوص لم تفصح كثيرا عن تفاصيل الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية، ومدى تحديها واستجابتها لهذه الظروف. وهي نقطة مهمة تظل تستقطب اهتمامات الباحثين وتراود أقلامهم.

ولما كانت حياة الإنسان ومعايشه – كما ذكر الماوردي- تقوم على:" نماء زراعة، ونتاج حيوان، وكسب صناعة، وربح تجارة. فإن التعطل الذي يصيب هذه المعايش بفعل المنعطفات المناخية أثر على الوضع الاقتصادي، وعلى نفسية الإنسان، الذي كان عليه التأقلم مع التقلبات المناخية وقساوتها، كما شكلت عنصرا هاما في تكوين سلوكات تتماهى فيها بعض الذهنيات في التعامل مع المناخ من طقوس وفعاليات؛ تنوعت بين الإيجابية والسلبية، وكانت الرغبة فيها جامحة لتجاوز الأزمة.

المراجع:

1. ابن أبي زرع، (1972). **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

2 .أوليفياريمي كونستيل، (2002). **التجارة والتجار في الأندلس**.ط1. تعريب. فيصل عبد الله. مكتبة العبيكان.

3. بصديق عبد الكريم، (2018/2017). **البيوع والمعاملات التجارية في المغرب الأوسط وأثرها على المجتمع ما بين القرنين (6-9ه/12-15م)**. دكتوراه غير منشوراه. تخصص تاريخ وسيط. جامعة وهران. الجزائر.

4 .ابن بطوطة، (1987).**رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.** تحقيق. محمد عبد المنعم العريان. ط1. بيروت: دار إحياء العلوم.
5. بكر بن حماد، (1996). **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي.** تقديم وجمع محمد بن رمضان، ط1، مستغانم (الجزائر): المطبعة العلوية .
6. البكري. (د. س. ن).**المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب.** القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
7. البكري، (1992). **المسالك والممالك.** تحقيق. أدريان فان ليوفن. أندري فيري. الدار العربية للكتاب. المؤسسة الوطنية للترجمة.
.9. جودت عبد الكريم يوسف، (1992). **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (10-9م).** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
10. الحسن الوزان، (1983). **وصف إفريقيا.** ترجمة. محمد حجي. محمد الأخضر. ط2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
11 .الحسين بولقطيب، (د.ت). **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين.** منشورات الزمن.
12 .ابن حوقل، (د.ت). **صورة الأرض.** بيروت: دار مكتبة الحياة.
13.خالد بلعربي (2008). **" الادخار والأمن الغذائي بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني (962-633ه/1235-1554م.).**مقال من كتاب"إضاءات حول تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط (السياسة- الاقتصاد- الثقافة- المجتمع). تلمسان: النشر الجامعي الجديد.
14.الذهبي، (1984).**العبر في خبر من خبر.** تحقيق. فؤاد السيد. ط2. الكويت. مطبعة الحكومة.
15. ابن الزيات، (1997). **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي.** تحقيق. أحمد التوفيق. ط2. الرباط: مطبعة النجاح الجديدة .

16. سعيد بن حمادة، (2013). **الغرب الإسلامي مباحث في العلوم التجريبية**. ط1. مصر: دار رؤية.
17. ابن الصغير المالكي، (د.ت). **أخبار الأئمة الرستميين**. تحقيق. محمد ناصر. إبراهيم بحاز، بيروت: دار الغرب الإسلامي
18. الادريسي، (2002). **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
19. العبدري، (2007). **الرحلة المغربية**. تقديم. سعد بوفلاقة.الجزائر: منشورات بونة للبحوث والدراسات .
20 . ابن عذارى المراكشي، (1985).**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق. محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
21. عز الدين. موسى، (1983). **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**. ط1. القاهرة: دار الشروق.
22 .عبد العزيز فيلالي، (2007). **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية،عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**. الجزائر: موفم للنشر.
23. الغبريني: (د.ت). **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**. تحقيق. عادل نويهض. ط2. بيروت: دار الأفاق الجديدة.
24. .الماوردي، (2013).**آداب الدين والدنيا**. ،ط1. بيروت: دار المنهاج.
25. مؤلف مجهول، (د.ت). **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة: دار الشؤون الثقافية العامة .
26. .محمدالمغراوي، (2006). **الموحدون وأزمات المجتمع**، ط1. جذور للنشر.
27. محمدالمنوني، (1977). **العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين**، ط2. الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

28. ابن مرزوق التلمساني، (1981).**المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق. ماريا خيسوس بيغيرا. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
29. ابن مرزوق، (2008). **المناقب المرزوقية**. تحقيق. سلوى الزاهري. ط1. الملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. مطبعة النجاح.
30. نوال بلمدني، (2015/2014). **نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (5-4ه/ 10-11م)**.رسالة دكتوراه غير منشورة .في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، الجزائر.
31 .النويري، (د.ت). **نهاية الأرب في فنون الأدب**. تحقيق. عبد المجيد ترحيني. بيروت: دار الكتب العلمية.
32 .عبد الهادي البياض، (2008).**الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات المغرب والأندلس (ق 6-8ه/12-14م)**. ط1. بيروت: دار الطليعة.
33 .عبد الهادي البياض، (د.ت). **المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط** ، الرياض: المجلة العربية.
34 . الونشريسي، (1981).**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب** .الرباط: نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية.
35 . ياسر الهلالي محمد ياسر، (2002)."**أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادي في الغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط".** الجمعية المغربية للبحث التاريخي. ص-ص 167-222.

للإحالة على هذا المقال:

- بوساق سجية، (2022)، « **التقلبات المناخية وانعكاساتها على النشاط الاقتصادي في المغرب الأوسط**» . **المواقف**، المجلد: 18، العدد: 01، أوت 2022، ص. ص 434- 454.